سيرة الخوري بطرس التولاوي وأبرز منجزاته[1]

(١٦٥٧-١٧٤٦)

في اسم المؤلّف

ذكرت المصادر اسم المؤلّف بأشكال ثلاثة مختلفة هي التُولاوِي، والتُولَوِي، والتُولانِي. فالصيغة الأوّلى وردت على لسان صاحب هذا المخطوط في مقدّمة تأمّلاته[2]، كما أوردها من بعده المطران يوسف الدبس في كتابه **تاريخ سوريّة**[3] وفي كتابه **الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل**[4] ومجلّة "المشرق"[5]، وكمال يوسف الحاج في كتابه **موجز الفلسفة اللّبنانيّة**[6]. أمّا الصّيغة الثانية، أي "التولوي"، فقد أوردها المونسنيور جرجس منش في مقالة له بمجلّة "المشرق"[7]، والصيغة الثالثة "التولاني" وردت على الصفحة الأوّلى من المخطوط، موضوع هذا الكتاب، وقد نسخه فارس بن يوسف الشّدياق.

تجاه هذا اللبس في الاسم الصحيح، لا بدّ من العودة إلى التفسير اللغويّ الذي يفترض أن تكون هذه التسمية نسبة لاسم تولا، قرية الكاتب، وهو اسم مقصور. وتتمّ النسبة إلى المقصور، كما يعلم القارئ، بقلب ألفه واوًا إذا كانت ثالثة كقولك عصا عصويّ وفتى فتويّ. أمّا إذا كانت الألف رابعة في اسم ساكن الثاني، فتُقْلَب الألف واوًا أو تُحْذَف كقولك مَلْهى مَلْهويّ أو مَلْهيّ. وقياسًا تجوز النسبة لاسم تولا بلفظتي تُولَوي أو تُولِيّ. كما يجوز، إذا قلبتها واوًا، زيادة ألف قبل الواو، نحو: مسْعَى مسْعَويّ ومسعاويّ، أو يافا يافويّ ويافاويّ.

وعليه، وبناءً على ما تقدّم، فالتسميات الصحيحة لغويًّا هي: تُولَوي وتُولاوي وتُولِيّ. أمّا النسبة بالنون، أي التولاني، فهي خطأ لغويّ لا يجوز تبنّيه. وبما أنّ لفظة توليّ لم تُستعمل كاسم للمؤلّف، على صحّتها، فإنّنا نبقى أمام لفظتين صحيحتين: تولَويّ وتولاويّ. وقد اشتهرت الثانية ربّما لسهولة لفظها. لذا نعتمد اسم التولاويّ اسمًا صحيحًا للعلّامة الفيلسوف الخوري بطرس.

---

[1] الرَّيحاني، أمين ألبرت (تقديم)، **مقدّمة مخطوط "الإيساغوجي" أي مدخل المنطق، للخوري بطرس التولاوي**، زوق مكايل، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص ٩ – ١٧.

[2] هو واحد من مخطوطاته.

[3] المطبعة العموميّة، بيروت ١٩٠٥، الجزء الرابع، المجلّد الثامن، ص ٥٥٢.

[4] دار لحد خاطر، بيروت، ط ٣، ١٩٨٢، ص ٣٠٦.

[5] سنة ١٩٠١، ص ٧٨٦.

[6] **موجز الفلسفة اللبنانيّة**، بيروت، ١٩٧٤، ص ٣٥٢.

[7] سنة ١٩٠٣، ٧٧٠.

سيرة التولاوي

هو عبدالله بن بطرس بن اسحق التولاويّ[١]، من قرية تولا من أعمال البترون، ومن بيت زيتو[٢]. وفي توقيع له بخطّ يده[٣] ورد اسمه باللاتينيّة Pietro Oliva Tulense.

ولد عام ١٦٥٧[٤]. ويبدو أن والده قد بذل عناية فائقة لتعليمه وتثقيفه. تعلّم مبادئ اللّغة السريانيّة لدى خوري القرية. وفي الثانية عشرة من عمره، أي عام ١٦٦٩، أرسله البطريرك جرجس البسبعلي، برفقة مجموعة من الفتيان اللبنانيّين[٥]، إلى المدرسة المارونيّة في روما، التي كانت بإدارة الآباء اليسوعيّين.

هناك تلقّى علوم المنطق والفصاحة والخطابة والفلسفة والطبيعيّات والإلهيّات والحقّ القانونيّ واللاهوت النظريّ والأدبيّ والتاريخ الخاصّ والعامّ[٦]، إلى جانب الهندسة والموسيقى وعلم الفلك[٧]. عاد إلى لبنان بعد أربعة عشر عامًا، أي عام ١٦٨٢، حاملًا شهادة الملفنة[٨] في الفلسفة واللاهوت. في ذلك العام، رقّاه البطريرك إسطفان الدويهي إلى مقام الكهنوت، وعيّنه كاتبًا له وقسًّا لدير قنّوبين.

في هذه الأثناء، أكبّ التولاوي على نسخ مخطوطين، واحد دينيّ مسيحيّ، وثانٍ دينيّ مسيحيّ وإسلاميّ. الأوّل بعنوان **كتاب الناموس** لمؤلّفه ابن الّطيب في القرن الثاني عشر، وفيه فصول عن الكنيسة والكتب المقدّسة والبطاركة والأساقفة والرهبان والعشور والنّذور والشّؤون الحياتيّة كالمأكل والملبس والزواج ... وقد أتمّ نسخه في شهر آب من عام ١٦٨٣. في تلك السنة أيضًا، نسخ التولاوي مخطوطًا آخر هو مجموع ستة أبحاث تأليف ميخائيل الحصرونيّ مطران طرابلس الماروني. وفيه: **كتاب الشرائع والتوريث، جواهر الفرائض الإسلاميّة، أعياد القدّيسين بحسب الطقس الماروني، مختصر المجامع السبعة الأولى، لائحة بكراسي الأساقفة ورؤساء الأساقفة التابعة لبطريركيّة أنطاكية من خلال مخطوطات اليونان ومخطوطات اللاتين**[٩]. بعد ثلاث سنوات، أي عام ١٦٨٥، أرسله البطريرك الدويهي إلى حلب، وأوكل إليه مهمة الوعظ والإرشاد والتّعليم والتّثقيف. أمّا اختيار مدينة حلب

---

[١] وقد أتى على ذكر نسبه في مقدّمة تأمّلاته على الوجه الآتي: "الخوري عبدالله بطرس بن بطرس بن اسحق الماروني التّولاويّ".

[٢] وقد يكون الصّحيح من بيت زيتون كما يذكر المطران يوسف الدّبس في كتابه **الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل**، ص ٣٠.

[٣] في مطلع مخطوط المكتبة المارونيّة في حلب رقم ١٧٩ .

[٤] ذكر هذا التاريخ المطران يوسف الدبس في كتابه **الجامع المفصّل**... ص ٣٠٦، و**تاريخ سوريّة** ج ٤، م ٨، ص ٥٥٢. ولم يأتِ المونسنيور جرجس منش على ذكر تاريخ ميلاده. أمّا كمال يوسف الحاج، فقد حدّد تاريخ مولده بعام ١٦٥٥ من دون أن يُبرّر هذا التّاريخ. لذا نعوّل على المرجعين الأقدمين للمطران يوسف الدّبس، ونعتمد ١٦٥٧ تاريخاً صحيحاً لمولد التولاوي

[٥] يذكر الخوري نبيل الحاج أن البطريرك جرجس البسبعلي أرسل أربعة أولاد إلى روما سنة ١٦٦٩ بصحبة راهب فرنسيسكانيّ إيطاليّ من رهبان القدس يدعى فرّا بطرس أو بياترو. وهؤلاء هم: بطرس التولاوي من تولا البترون، وباخوس الدويهي ونعمة يمّين من إهدن، وعبدالله حبقوق من بشعله. راجع الخوري نبيل الحاج، " الخوري بطرس التولاوي وأثره في النّهضة"، مجلة المنارة، ١٩٨٤، العدد ٢، ص ٢٩٢، والأب اغناطيوس سعاده، "بطرس التولاوي، حياته وأثاره"، محاضرة في اللّقاء الثّقافيّ البترونيّ الأوّل، منشورات المجلس الثّقافيّ البترونيّ، ١٩٨٥، ص ٤١.

[٦] منش، القس [المونسنيور] جرجس الماروني، "الخوري بطرس التولوي الفيلسوف الشهير"، مجلة المشرق، ١٩٠٣، ص ٧٧٠.

[٧] سعاده، الأب اغناطيوس ، منشورات المجلس ألثّقافيّ البترونيّ ، ص ٤٣.

[٨] لفظة ملفان سريانيّة الأصل، ملفونو أي المعلم العلّامة.

[٩] الحاج، الخوري نبيل، مجلّة المنارة، العددان الأول والثاني، جونيه، ١٩٨٤، ص ٢٩٥-٢٩٦.

لإرسال التولاوي إليها من قبل البطريرك، فلأنه "أراد أن يبثّ فيهم روح العلم، لتُنشر بواسطتهم المعارف في هذه البلاد المشرقيّة؛ لأن الحلبيّين كانوا، من دون سائر النصارى، يفقهون باللغة العربيّة السائدة في هذه الأصقاع، وعنهم أخذ الجميع. فنظر في أن تكون هذه اللغة آلة لنشر العلم، واختار لهم... الخوري بطرس من تولا..."[١] في حلب درّس في "الكُتّاب الماروني" الذي أسّسه الخوري إسطفان الدويهي سنة ١٦٦٦ قبل أن يصبح بطريركًا. كانت مواد التدريس: الصرف والنحو والبلاغة واللغات السريانيّة والإيطاليّة واللاتينيّة والتركيّة، إلى جانب الفلسفة واللاهوت[٢]. وكان التولاوي، إلى جانب التدريس[٣]، يؤلّف ويترجم ويعظ.

وقد استقطب حوله مجموعة من الطلّاب النابهين الذين بثّ فيهم الفضول المعرفيّ والروح التنظيميّة والقيم الروحيّة[٤]. في تلك الفترة، قام التولاوي بنَسخ "شرطونيّة"[٥] الدويهي، وتعني الترقية أو السيامة إلى الرّتب الكنسيّة. وقد أنجز هذا النسخ عام ١٦٨٦[٦].

وتقديرًا لأعماله، سامه المطران جبرائيل البلوزاوي، مطران حلب، عام ١٦٩٨، خوريًا بردیوطًا[٧] وكلّفه رئاسة الكهنة في تلك المدينة[٨]. ذكر أحد مُعاصريه الخوري يوسف مارون الدويهي أنّ من جُملة الّذين أرشدهم إلى الإيمان الكاثوليكيّ الخوري نيقولاوس الصائغ والشمّاس عبدالله الزاخر والشمّاس مكرديج الكسيح[٩].

عُرِف بشدّة تواضعه وبطول باعه في الشؤون اللاهوتيّة والفلسفيّة، كما عُرف بعمق تفكيره وقوّة حجّته وصلابة منطقه وفصاحة لسانه. وقد تميّز بذهن حادّ، وعقل نيّر، وبصيرة نافذة، وعطاء غزير. وافاه الأجل في ٥ آب سنة ١٧٤٦[١٠] عن عمر يناهز التسعين عامًا.

ترك التولاوي مؤلّفات في الفلسفة واللاهوت والتّاريخ الكنسيّ وسواها من المواضيع، وسنفرد لها بابًا مستقلًّا في هذه المقدّمة نظرًا لأهميّتها ولمكانتها في تعزيز الدور النهضويّ الذي قام به اللبنانيّون في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

---

[١] شبلي، بطرس، ترجمة إسطفانوس بطرس الدويهي، منشورات الحكمة، بيروت، ١٩٧٠، ص ١١٦.

[٢] الحاج، الخوري نبيل، مجلّة المنارة، ١٩٨٤، ص ٢٩٨.

[٣] كان يساعد التولاوي في التدريس في "الكُتّاب الماروني" في حلب كل من القسّين حنّا الباني ويوسف الباني، كلاهما من تلامذة المدرسة المارونيّة في روما، والشّيخ يعقوب الدّبسي "قدوة العلماء المحقّقين". راجع الخوري نبيل الحاج، مجلّة المنارة، ١٩٨٤، ص ٢٩٨.

[٤] صفير، الأب بولس، "تأثير تلامذة مدرسة روما على الروحانيّة المارونيّة"، محاضرات جامعة الرّوح القدس – الكسليك، ١٩٨٥، ص ٩٥.

[٥] اللّفظة من أصل يونانيّ ..... chirotono بمعنى التّرقية إلى رتبة الكهنوت. راجع: الأب روفائيل نخله اليسوعيّ، **غرائب اللّغة العربيّة**، سلسلة نصوص ودروس رقم ١٢، ط ٢، بيروت، المطبعة الكاثوليكيّة، ١٩٦٠، ص ٢٦٠-٢٦١.

[٦] الحاج، الخوري نبيل، المرجع السابق، ص ٢٩٨.

[٧] البرديوط لفظة يونانيّة الأصل ..... perio-dheftis أي الزّائر المتجوّل. ورد تعريف الخوري البرديوط وتحديد حقوقه في كتاب "المجتمع اللّبناني" ص ٣٣٥ و ما يليها.

[٨] منش، القسّ جرجس الماروني، "الخوري بطرس التّولوي الفيلسوف الشّهير"، مجلّة المشرق، ١٩٠٣، ص ٧٧١.

[٩] مجلّة المشرق، ١٩٠٠، ص ٩١٥.

[١٠] الحاج، الخوري نبيل، مجلّة المنارة، ١٩٨٤، ص ٣١٧. أمّا اعتبار تاريخ الوفاة سنة ١٧٤٥، كما وردت في كتابات المطران يوسف الدّبس والمنسنيور جرجس منش والأب لويس شيخو، فهي لا تستند إلى وثيقة معتمدة. أمّا الخوري نبيل الحاج فقد أسند تاريخ وفاة التّولاوي باليوم والشّهر والسّنة إلى سجلّ الوفيّات في المطرانيّة المارونيّة في حلب.

اللّغات التي أتقنها

درس التولاوي في مدرسة روما اللغات السريانيّة والإيطاليّة واللاتينيّة والعبرانيّة واليونانيّة. فجمع بين اللغات الحيّة واللغات القديمة، كما جمع بين لغة التراث، أي السريانيّة، ولغة المنطق، أي اللاتينيّة ولغتي العهدين القديم والجديد، أي العبرانيّة واليونانيّة إلى جانب اللغة الأوروبيّة الحيّة أي الإيطاليّة. أمّا العربيّة فلا تأتي المراجع على ذكر دراستها، رغم إتقانه لها كتابة وخطابة. ويشير المطران يوسف الدبس، بهذا الصدد، إلى أنّ التولاوي قد دَرس الفقه الإسلاميّ، وكان فيه من المبرّزين المجتهدين. وتُنسب إليه فتاوى عدّة اعتمد في بعضها على علم الطبيعيّات[١]. ويؤكّد الدبس على المكانة الرفيعة التي احتلّها التّولاوي لدى العلماء المسلمين الذين كانوا "يجلّونه ويتهيّبونه، بل يستفتونه في مسائل فقهيّة"[٢].

لكن، ماذا عن المدرسة المارونيّة في روما، هل كانت تدرِّس العربيّة؟ يؤكّد الأب اغناطيوس سعادة أنّ بعض الآباء والرهبان اللبنانيّين الذين كانوا يلتحقون بالمدرسة المارونيّة في روما كانوا يدرّسون اللغة العربيّة لتلامذتها[٣]. ويبدو أنّ اللّغة العربيّة لم تكن داخلة في صلب المناهج التعليميّة، ممّا حمل بعد التلاميذ، على أن "يحصّلوا ذلك بأنفسهم وبمساعدة بعض الكهنة الموارنة المقيمين في روما"[٤]. وقد دفع هذا الأمر بالبعض منهم إلى نوع من الالتزام "باللغة العربيّة يكاد يضاهي التزامهم بالسريانيّة، وقد أصبحت العربيّة لغة أساسيّة لديهم..."[٥] وقد يكون التّولاوي تأثّر أيضًا بزميل له في المدرسة المارونيّة في حلب، وهو العلّامة الشيخ يعقوب الدبسيّ، أستاذ اللغة العربيّة في تلك المدرسة، آنذاك. ولا ننسى أنّ قيامه بنسخ عدد من المخطوطات، وفي بعضها ما يُعالج الفرائض الإسلاميّة، قد شكّل لديه عنصرًا إضافيًّا من عناصر تمكُّنه من اللغة العربيّة وأصولها.

من طلّابه

نقل التولاوي العلم والمعرفة إلى مجموعة كبيرة من الطّلاب مدّة نيّف ونصف قرن، وكان من بين النّابهين من طلّابه، والذين طارت لهم شهرة لاحقة في الشؤون الأدبيّة والدّينيّة: المطران جرمانوس فرحات، والمطران عبدالله قرألي، والمطران جبرائيل حوّا، والقسّ عبد المسيح لبيان، والقس عطاالله زنده، والخوري نيقولاوس الصائغ، والشمّاس عبدالله الزاخر، والشمّاس مكرديج الكسيح، وسواهم ممّن تعلّموا على التولاوي علم المنطق واللغتين الإيطاليّة واللاتينيّة[٦]. ومن يطلع على منجزات هؤلاء "التلامذة" يدرك كم كان دور التولاوي كبيرًا وفاعلًا في بثّ الفضول المعرفيّ والدربة العلميّة والوعي الفكريّ والروحيّ في نفوس طلّابه الذين حملوا من بعده مشعل النهضة الأدبيّة في لبنان والمشرق العربيّ، بدءًا من القرن السابع عشر.

---

[١] الدّبس، المطران يوسف، **تاريخ سوريّة**، ج.٤، م.٨، ص ٥٥٢.

[٢] المرجع السّابق، ص ٥٥٢.

[٣] من حديث مع الأب سعاده، بتاريخ ١٤ كانون الأوّل ٢٠٠٠.

[٤] الطّبر، الأب سركيس، "المخطّات الأساسيّة في تاريخ مدرسة روما المارونيّة"، مجلّة دراسات، كليّة التربيّة، الجامعة اللّبنانيّة، العددان ١٦-١٧، ١٩٨٥، ص ٢٧.

[٥] الخازن، د. وليم، "أثر المدرسة المارونيّة في روما في اللّغة والآداب العربيّة"، مجلّة دراسات، كلّيّة التّربية، الجامعة اللبنانيّة، العددان ١٦-١٧، ١٩٨٥، ص ٥٥.

[٦] مجلّة المشرق، ١٩٠٣، ص ٧٧٤.

من الألقاب التي عُرِفَ بها

تعدّدت الألقاب التي أُطلقت على التولاوي. ورغم ما حمله بعضها من المبالغات، غير أنها جميعًا تدلّ على مكانته العلميّة والفكريّة، وعلى تقدير أهل عصره له. من تلك الألقاب: الفيلسوف الكامل، والعلّامة الفاضل، وإمام الخطباء، وقدوة العلماء، وكوكب الشرق، وقبّة الحكمة، وقطب الفلاسفة، وعمدة اللاهوتيّين، ومعدن البراهين المنطقيّة، وكنز العلوم اللاهوتيّة، وشمس الأمصار الشرقيّة، وشهاب الملّة المارونيّة، إلى سواها من ألقاب تنبي عن مكانة التولاوي الرفيعة في عصره، ومدى الاحترام والإعجاب اللذين كان يتمتع بهما في زمانه من قبل أهل العلم والمعرفة.

ورغم الإجحاف الذي لحق به في عصرنا بسبب إهماله، وإهمال معظم مفكّري القرنين السابع والثامن عشر في لبنان، فإن طليعة أدبائنا في القرن العشرين قد أتوا على ذكر التولاوي بما يستحقّه من التقدير. قال فيه مارون عبّود "وبحق نسمّيه أستاذ الطلائع"[1]. واعتبر الدكتور كمال يوسف الحاج أن "تركته الفلسفيّة هي ... سلسلة تآليف متناسقة متتابعة في كلّ أبواب الفلسفة واللاهوت"[2]. وربط الأب الدّكتور توما مهنّا بين التولاوي الإنسان والمفكّر قائلًا: "أقف ... أمام شخصيّة التّولاوي كمقدّمة ... للوقوف أمام نتاجه الفلسفيّ"[3].

[1] **أدب العرب**، المجموعة الكاملة، المجلّد الأوّل، بيروت، دار مارون عبّود، ١٩٧٨، ص ٤٠٦.

[2] **بطرس التولاوي: نتاجه الفلسفيّ**، منشورات المجلس الثقافيّ البترونيّ، ١٩٨٥، ص ٥٢.

[3] **موجز الفلسفة اللّبنانيّة**، بيروت، ١٩٧٤، ص ٣٥٣.